آراء العلماء في الترتيب المصحفي وحقيقة دعوى إعادة ترتيب المصحف حسب النزول

أ. رياض عميراوي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية –قسنطينة

ملخص:

يعد القرآن الكريم معجزة المعجزات في بلاغته وأسلوبه وطريقة تناوله للقضايا المبثوثة في ثناياه، لا سيما في ترابط وتناسب آياته وترتيب سوره وأجزائه التي اتخذها المستشرقون مدخلا للتشكيك في توقيفية هذا الترتيب الرباني المتناسق والمتناغم، مما حدا بي إلى عرض هذه الدعوى ومناقشتها قصد دحضها وبيان بطلانها خدمة للقرآن الكريم وبيانا لإعجازه الخالد وإثباتا لصحة ترتيب آياته وسوره.

Abstract:

When i flicked over some of the orientalists'books and read about their doubts concerning the holy book «the Quran » and how they shaked the tranquility of Muslims towards their book, I realized that it is worth clarifying that such ideas are dangerous and affect Muslims' beliefs.

In the present article I have tried to make it clear to muslims showing the dangers such claims entail. I also warned Muslims to be careful and do not follow what harms our religion which is our guide towards success in this life and the hereafter.

المبحث الأول: آراء العلماء في ترتيب المصحف

المطلب الأول: الإجماع على ترتيب الآيات

أولا: نقل إجماع الأمة

أجمعت الأمة الإسلامية على أن ترتيب الآيات في سورها على ما هو عليه المصحف اليوم توقيفي بأمر من النبي ﷺ، فقد كانت الآيات تنزل عليه، وجبريل يدله على مواضعها، ويبلغها رسول الله صحابته، ويأمر كتاب الوحي بنسخها في مواضعها، وكان جبريل يعارضه بالقرآن في رمضان كل عام مرة، حتى عارضه في السنة التي توفي فيها رسول الله مرتين مرتبا الآيات كما هي عليه الآن، وقد حفظه الصحابة بعده وأجمعوا على هذا الترتيب[1].

ولقد نقل غير واحد من العلماء الإجماع في ذلك، فلقد جاء في البرهان للزركشي قوله: «فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة في أوائلها، فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها»[2]، وممن نقل الإجماع أيضا حول هذه المسألة أبو جعفر بن الزبير الغرناطي، حيث قال: «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه صلى الله عليه وسلم، وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»[3].

---

[1]- محمد أحمد القاسمي: الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره، ط1، 1979م، مصر، ص244.

[2]- الزركشي البرهان في علوم القرآن، دار النشر بيروت، (د،ط)، ج1، ص256.

[3]- ابن الزبير الغرناطي، البرهان في ترتيب سور القرآن، تحقيق: محمد شعباني، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، سنة: (1410هـ/1990م)، ص182.

فالإجماع والنصوص المترادفة كلها على أن ترتيب الآيات توقيفي، لا شبهة في ذلك، قال مكي[1] وغيره: ترتيب الآيات في السور بأمر النبي ﷺ، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تركت بدون بسملة، وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: «ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان الرسول بأمر من جبريل عليه السلام يقول ضعوا آية كذا في موضع كذا»[2]، ويقول السيوطي: «والذي نذهب إليه أن جميع القرآن الذي أنزله الله وأمر بإثبات رسمه، و لم ينسخه، ولا رفع تلاوته بعد نزوله، هو الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان، وأنه لم ينقص منه شيئا، ولا زيد فيه، وأن ترتيبه، ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى، ورتبه عليه رسوله من آي السور، لم يقدم من ذلك مؤخر و لم يؤخر مقدم، وأن الأمة ضبطت على النبي ﷺ ترتيب آي كل سورة وموضعها وعرفت موقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات، وذات التلاوة، وأنه يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد رتب سوره، وأن يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده، و لم يتول ذلك بنفسه»[3].

ثانيا: أدلة هذا الإجماع:

وأما الروايات التي تعضد هذا الإجماع الذي ينص على أن هذا الترتيب توقيفي، فهي من الكثرة بما كان، فلقد قال زيد: «كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من

---

[1]- هو مكي بن أبي طالب حمش بن محمد بن مختار، أبو سمر القيسي، كان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، حسن الفهم، كثير التأليف في علوم القرآن، محسنا لذلك، توفي سنة: 473هـ، انظر ابن بشكوال، الصلة: ق2، ص631.

[2]- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: فؤاد أحمد زمولي، دار الكتاب العربي، 2004م، بيروت، ص163.

[3]- السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص163.

الرقاع»[1]، وأخرج أحمد وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، عن ابن عباس قال: «قلت لعثمان: ما حملك على أن عمدتم إلى الأنفال، وهي من الثاني، وإلى برآءة وهي من المئين، ففرقتم بينهما، ولم تكتبوا بينها سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال، فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ﴿ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا﴾، وكانت الأنفال أول ما نزل في المدينة، وكانت برآءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ، ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك فرقت بينهما، ولم أكتب سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتهما في السبع الطوال»[2].

وأخرج أحمد بن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالسا عند رسول الله ﷺ، إذ شخص ببصره، ثم صوبه، ثم قال: ﴿أتاني جبريل، فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى**...﴾[3]، إلى آخرها...﴾[4]، ويكفي في هذا الباب الرجوع إلى أحاديث فضل بعض الآيات من

---

[1]- رواه الترمذي تحت رقم: 3954، والإمام أحمد في المسند، ج5، ص 184، وابن أبي شيبة، برقم: 32466، في ج5، ص 157، وابن حبان: 114، والبيهقي في الدلائل، ج7، ص 147، كلهم عن زيد بن أبي ثابت رضي الله عنه.

[2]- ضعيف رواه الترمذي (3088)، وأبو داود (786-787)، والنسائي في السنن الكبرى تحت رقم: (8007)، والإمام أحمد في المسند، ج1، ص 57-69، ورواه الحاكم النيسابوري: ج2، ص 221-330، ابن حبان (43)، وابن أبي داود في المصاحف، ص 31، والبيهقي: ج2، ص 42.

[3]- سورة النحل: الآية 90.

[4]- رواه أحمد في المسند: ج4، ص 218، وفي سنده ليث وهو صدوق، اختلط، ولم يتميز حديثه، فترك، أنظر: التهذيب: ج4، ص 369.

السور في كتب التفسير، كحديث فضل أواخر سورة البقرة[1]، والعشر آيات في بداية الكهف[2]، ومما واضب عليه رسول الله ﷺ في قراءته لبعض السور لم يغير منهن شيئا، لا بتقديم ولا بتأخير، في آياتها كقراءة سورة البقرة، وسورة النساء، وآل عمران، وقراءته، لسورة "ق" في العيد[3]، والمنافقون في الجمعة[4] بالترتيب نفسه في الآيات لم يختلف عليه أحد.

وهذا من أوضح الأدلة على أن هذا الترتيب الذي رتبه الله عليه ولأجله كان النبي ﷺ يدلهم على موضع السورة من القرآن، والآية من السورة: ليكتب ويحفظ على نظمه وترتيبه.

---

[1]- رواه مسلم في صحيحه برقم: 809، وأبو داود (4323)، والترمذي برقم: (2886)، والنسائي برقم: (8025-10784)، وأحمد في مسنده: ج5، ص 196، وج6، ص 446-449، وابن السني عي عمل اليوم والليلة: برقم (676)، والمحاملي في الأمالي، برقم: (356)، وأبو عبيد، وغيرهم.

[2]- رواه البخاري في صحيحه برقم: (5008-5009-5040)، ومسلم برقم: (807)، وأبو داود برقم: (1397)، والترمذي برقم: (2881) والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم: (718-719)، وابن ماجة في سننه برقم: (1368-1869)، والدرامي برقم: (3388)، وأحمد في المسند: ج4، ص 118، وابن حبان برقم: (781)، والبغوي في شرح السنة برقم: (1199) في الفضائل ص 132، وابن الضريس، في فضائل القرآن، ص 92، وابن حبان برقم: (785)، والبيهقي في الشعب، ج2، ص 474)، والبغوي في تفسيره، ص 187، وفي الشرح برقم: (1204).

[3]- رواه مسلم برقم: (891)، وأبو داود برقم: (1154)، والترمدي برقم: (534- 535)، والنسائي ج3، ص 183، وابن ماجة برقم: (1282)، ومالك برقم: (8)، ج1، ص 180، وأحمد ج5، ص 217، وابن حبان برقم: (2820)، والبغوي برقم: (1107).

[4]- رواه مسلم برقم: (877)، وأبو داود برقم: (1124)، والترمذي في سننه برقم: (5109)، وابن ماجة برقم: (1118)، وأحمد في المسند: ج2، ص 429، وابن خزيمة برقم: (1843)، وابن حبان برقم: (2806)، والبغوي (1088)، وكلهم من حديث أبي هريرة.

وأنبه أن في القرآن آيات ذكر فيها الناسخ مقدما في ترتيب التلاوة على المنسوخ، كآية: ﴿**والذين يتوفون منكم ويدرون أزواجا وصية**﴾[1] بعد قوله تعالى: ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن...**﴾[2]، خلافا يقوله أبو مسلم[3] أن تلك في الوصية إذا أقمن فلهن السكنى، والنفقة حولا، فإن خرجن فعليهن في النكاح إذا مضت المدة المفروضة، وهذا قول مجاهد[4].

روى البخاري قال: قال ابن الزبير[5]: قلت لعثمان بن عفان: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا﴾، قال: قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال: يا ابن أخي لا أغير شيئا منه من مكانه، -يعني لم تكتبها وقد علمت أنها منسوخة- أو

---

[1]- سورة البقرة، الآية 240.

[2]- سورة البقرة، الآية 234.

[3]- هو الفقيه العابد ريحانة الشام روى عن عمر ومعاذ، وأبي عبيدة، وحدث عن أبي إدريس الخولاني، وأبو العالية الريحاني، وجبير بن نفير، وعطاء، وأبو قلابة، توفي سنة 62هـ في دولة يزيد. انظر: سير أعلام النبلاء: ج4، ص 449.

[4]- هو الإمام أبو الحجاج المخزومي المقرئ المفسر الحافظ ولي السائب ابن أبي السائب، سمع سعدا، وعائشة، وأبا هريرة، وأم هانئ، ولزم ابن عباس مدة وأخذ عنه، وروى عنه قتادة، والحكم بن عتيبة، وعمرو بن دينار، ومنصور الأعمش، وتوفي سنة 103هـ عن عمر يناهز 83 سنة. أنظر: كشف الظنون، ص 501.

[5]- هو عبد الله بن الزبير بن أبي العاص بن العوام بن خويلد، الأسدي القرشي، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، وكنيته أبو خبيب، وأبو بكر، ولد بالمدينة المنورة في السنة الثانية للهجرة، وهو أول مولود من المهاجرين في المدينة، كان له صحبة، حيث يُروى في مسنده ثلاثٌ وثلاثون حديثا، وكان ممن روى عنه: والده، وجده لأبيه، وخالته السيدة عائشة، وقد روى عنه أبناؤه، وأحفاده، وجماعة من التابعين، كان عالما زاهدا، وقتل في شهر جمادى الأولى سنة: 73هـ، وعمره بضع وسبعون سنة. انظر أعلام النبلاء ج3، ص 213.

قال: لم تدعها مكتوبة- شك من الراوي، وفي جواب عثمان دليل على أن ترتيب الآي توقيفي، وكأن عبد الله بن الزبير ظن أن الذي يُنسخ حكمه، لا يُكتب، فأجابه عثمان: بأن ذلك ليس باللاَّزم، والمتبع في التوقيف، ومعنى هذا الكلام أن تمام السنة على أربعة أشهر وعشرا، إنما هو بالوصية، إن شاءت سكنت في بيتها، وإن شاءت خرجت... ثم جاء الميراث فنسخ السكنى، فتعتد حيث شاءت، فلا سكنى لها[1].

وقد اكتظت كتب الحديث بالإشارة إلى هته الفكرة وما كان فيه تعارض من هذه النصوص والآثار المنقولة- على قلته- فهو إما ضعيفا لا يُأبه له، أو مؤولا بعيدا لا يعتد به، ولا يقوم مقام الآثار الصحيحة التي تثبت توقيفية آي القرآن.

ونختم هذا الكلام بأن الصحابة رضوان الله عليهم جمعوا القرآن كما هو عن رسول الله ﷺ، من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقصان على الترتيب الإلهي بتوقيف جبريل عليه السلام، وإعلامه بوضع الآية من السورة.

المطلب الثاني: ترتيب السور

إذا كانت النصوص قد ترادفت على أن ترتيب الآيات في السور كان بأمر من النبي ﷺ، وبتوقيف من المولى تبارك وتعالى بواسطة جبريل عليه السلام، فهل الأمر كذلك بالنسبة لترتيب السور؟ أم هناك آراء أخرى؟ وإن كانت هناك أراء أخرى فما هي أدلة كل رأي منها؟

لقد أشار الشيخ ابن الزبير في كتابه: "البرهان في ترتيب سور القرآن" إلى أن ترتيب السور في القرآن فيه خلاف بين أهل العلم على خلاف ترتيب الآيات، فيقول: «...وإنما اختلف في ترتيب السور على ما هي عليه، وكما ثبت في مصحف عثمان بن

[1]- انظر العسقلاني: فتح الباري، (مصدر سابق)، ج8، ص 155، و- السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 523.

عفان الذي بعث بنسخه[1] إلى الآفاق، وأطبقت الصحابة على موافقة عثمان في ترتيب سوره وعمله فيه»[2]، ثم قال: «فكيفما دار الأمر فمنه صلى الله عليه وسلم عُرفَ ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر»[3]، وإنما الخلاف وقع في فعلهم في ترتيب السور هل كان بتوقيف قولي، أو بمجرد استناد فعلي حيث بقي لهم فيه مجال نظر؟ وحتى لو كان هذا الأمر اجتهادا من الصحابة، فإن الأمر مسلم فيه أيضا، لأنه لا يوجد من هو أفصح، وأعلم بكتاب الله، وبآياته، وسوره، ونزوله من الصحابة رضي الله عنهم، كما أنهم أعملوا في ذلك اجتهادهم الأقصى، وهم الأعلياء بعلمه، والمسلم لهم في وعيه، وفهمه، وهم العارفون بأسباب النزول، ومواقع الكلمات، وإنما ألفوه على ما كانوا يسمعون منه، وهو رسول الله ﷺ، وقد كان نظرهم هذا في ما استقر عليه النبي ﷺ من كان فعله الأكثر، والسند في ذلك بان الترتيب في السور قد روعي فيه التناسب، وإن كان لم يُراعى فيه أسباب النزول، وزمانه ومكانه، بأدلة،

---

[1]- والراجح أنها أربع نسخ، وقال أبو عمر الداني في: "المقنع في رسم القرآن، ص 10 «قيل أربع وقيل خمس، والأول أصح، وعليه الأمة». انظر: السيوطي الإتقان، ص 159، و-الزركشي: البرهان، ج1، ص 240. والداني هو: الحافظ الإمام شيخ الإسلام، أبو عمر عثمان بن سعيد الأموي، مولاهم القرطبي المقرئ، صاحب التصانيف، عُرف بالداني لمسكنه بدانية، قال: «ولدت سنة: 371هـ، وبدأت طلب العلم سنة: 386هـ، ورحلت إلى المشرق سنة: 397هـ، وسكنت القيروان أربعة أشهر، ودخلت مصر في شوال فمكثت بها سنة، ثم حججت، ورجعت إلى الأندلس في ذي القعدة سنة: 399هـ»، قرأ على عبد العزيز بن جعفر الفارسي، وابن غلبون، وسمع من أبي مسلم، والبزار، وابن النحاس، كان أحد الأئمة في القرآءات، ورواية الحديث والتفسير، كان مالكي المذهب، له 120مصنف، كانت وفاته بدانية في النصف من شوال، سنة 444هـ. مقدمة كتاب التيسير.

[2]- ابن الزبير الغرناطي: البرهان في ترتيب سور القرآن، (مصدر سابق)، ص 182.

[3]- المصدر نفسه، ص 183.

وأحاديث رويت منها في صحيح مسلم[1]، وما روى في مصنف ابن أبي شيبة[2]، وما نُقل عن الخطابي[3].

والقاضي ابن العربي[4]، والتأمل بالعقل في ذلك التناسب الموجود بين عدة سور كالأنفال، وبراءة، والتناسب الموجود بين الطلاق، والتحريم، والضحى، والشرح...مما

---

[1]- إشارة إلى حديث حذيفة في صلاة القيام، وطرفه: ﴿استفتح رسول الله (ص) البقرة فقلت: يركع عند المائة﴾ وقد سبق تخريجه.

[2]- إشارة لحديث أن قراءته في صلاة الجمعة، بسورة الجمعة، والمنافقون. سبق تخريجه أيضا.

[3]- هو الإمام أحمد بن إبراهيم ابن الخطاب السبتي، أبو سليمان الفقيه، المحدث اللغوي، وله عدة مصنفات، من آثاره: "معالم السنن"، و"إصلاح غلط المحدثين"، و"غريب الحديث" وله شرح على البخاري، توفي سنة: 388هـ. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج3، ص 1018، حيث نُقل عنه قوله: «أن الصحابة لما اجتمعوا على القرآن وضعوا سورة القدر عقب العلق، واستدلوا بذلك على أن المراد بها الكتابة في قوله: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ القدر آية1، إشارة إلى قوله: إقرأ».

[4]- ابن العربي هو محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي الإشبيلي، المالكي، ولد بالأندلس، ورحل إلى المشرق، وعاد إلى وطنه سنة 491هـ، وتولى القضاء، وذكر ابن بشكوال في الصلة أن له مصنفات عديدة منها: "عارضة الأحوذي" و"أحكام القرآن" و" العواصم، وشرح موطأ مالك، و"قانون التأويل"، توفي سنة: 543هـ بفاس، ونُقل عنه قوله: «..وهذا بديع جدا، قلت ومن ظن ممن اعتمد القول بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة، أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب، والاشتباه، فقد سقطت مخاطبته، وإلا فما المراعى في ترتيب النزول؟ وهو غير واضح في ذلك بالقطع، بل هذا معلوم في ترتيب آي القرآن الواقع ترتيبه بأمره عليه الصلاة والسلام، وتوقيفه بغير خلاف...». انظر ابن الزبير، البرهان، ص 184.

أنظر: - تاريخ قضاة الأندلس، ص 105.

- نفح الطيب، ج2، ص 199.

- الأعلام، ج6، ص 230.

لا يتوقف في وضوحه من له أدنى نظر، كما نقل عن أبي محمد بن عطية[1] قوله بتفصيل في المسألة، وساق له ابن الزبير في كتابه البرهان بعض ما يؤيد هذا الرأي، منه قول رسول الله ﷺ: ﴿إقرأوا الزهروان البقرة، وآل عمران﴾[2]، وحديث يؤتى بالقرآن يوم القيامة تقدمه سورة البقرة[3]، وحديث: صلى رسول الله ﷺ بالسبع الطوال في ركعة[4]، وحديث كان يجمع المفصل في ركعة[5]، وحديث رواه البخاري من طريق عائشة: ﴿أن

[1]- هو عبد الحق بن غالب ابن عبد الرحمن ابن عطية الأندلسي المحاربي الغرناطي، كان فقيها نبيها مفسرا أديبا شاعرا ذكره صاحب الصلة، وقال: كان مولده سنة: 481هـ، وتوفي في 25 رمضان، سنة 541هـ، بمدينة يورقة، من أشهر مصنفاته: "المحرر الوجيز" انظر: تاريخ قضاة الأندلس، ص 109. و- الأعلام، ج3، ص 282.

[2]- رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، برقم: (804) من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد، ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب: فضائل القرآن، أخبار في فضل سورة البقرة، برقم: (2071)، ورواه أحمد في المسند من حديث أبي أمامة البهلي، برقم: (21710/ 21642/21653)، و- في شعب الإيمان فصل في إدمان تلاوة القرآن برقم: (1980).

[3]- رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن الكريم، برقم: (805)، ورواه أحمد في المسند من حديث النواس بن سمعان، برقم: (17185)، ورواه في الشعب، الكتاب: التاسع عشر، باب: تعظيم القرآن برقم: (2373).

[4]- ابن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: عامر العمري الأعظمي، الدار السلفية بندي بازار بومباي، الهند، في كتاب: الصلوات في الرجل يقرن السورة في الركعة، ج1، ص 367.

[5]- المصدر نفسه: ص 368.

النبي كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة قرأ المعوذتين...﴾[1]، وكأنه يؤيد الرأي القائل بأن ترتيب السور، إن لم يكن رسول الله ﷺ، قد أمر به بلسان المقال، فإنه قد أشار إليه بلسان الحال، وهو ما كان عليه أكثر عمله، وأن العبرة بما ورد على الأكثر والإجمال، لا على القلة والتفصيل، وقليل بقي فيه الخلاف.

وإليك أخي القارئ تفصيل ذلك في ثلاثة مذاهب سلكها العلماء:

يقول الدكتور أحمد يوسف القاسم: «للعلماء في ترتيب السور مذاهب ثلاثة، فمنهم من يقول أن الترتيب اجتهادي، ومنهم من يقول إن البعض بالتوقيف، ثم يختلف هؤلآء في التحديد، ومنهم من يقول إن الترتيب توقيفي»[2]، ونحن نسجل في ذلك حيرة السيوطي حينما يتساءل في الإتقان عن ترتيب السور فيقول: «... وأما ترتيب السور فهل هو توقيفي أيضا، أو هو اجتهاد من الصحابة، فيه خلاف»[3] ويقول ابن الزبير الغرناطي: «... وإنما اختلف في ترتيب السور على ما هي عليه»[4]، يعني في المصحف العثماني، وما تعارف عليه الناس من هذا الترتيب الذي استقر عليه رأي الصحابة، والأمة جميعا.

القائلون بالاجتهاد:

وهم الجمهور، ومنهم:

---

[1]- أخرجه البخاري، ج9، ص 62، وأبو داود في سننه برقم: (5056)، والترمذي في الجامع ج4، ص 231، والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم: (788)، وابن ماجة برقم: (3875)، وأخرجه الإمام أحمد ج6، ص 116-154، وابن حبان برقم: (5543-5544).

[2]- أحمد يوسف القاسم ، الإعجاز البياني، (مصدر سابق)، ص 257.

[3]- السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 164.

[4]- ابن الزبير، البرهان، (مصدر سابق)، ص 182.

1- أبو الحسين أحمد بن فارس[1]: حيث قال ما نقله عنه السيوطي: «قال جُمع القرآن على ضربين، أحدهما: تأليف السور، كتقديم السبع الطوال، وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذي تولاه الصحابة رضوان الله عليهم، وأما الجمع الآخر فضم الآي بعضها إلى بعض، وتعقيب القصة بالقصة، فذلك شيء تولاه رسول الله ﷺ، كما أخبر به جبريل عن أمر ربه عز وجل»[2]، فهو يقسم طريقة جمع القرآن إلى قسمين، ويفرق بين ما جُمع على أساس الشكل، فتقديم الطول على القصر، وما جُمع على أساس مراعاة المضمون، كتعاقب القصة بعد القصة، والآية بعد الآية.

2- القاضي عياض[3]: حيث كان واضحا تماما في موقفه، وربما كان أوضحهم جميعا، حتى رتب على هذا الرأي أمورا أخرى، كجواز تنكيس السور في الصلاة، وغيرها، ونقل عنه يوسف القاسم قوله: «إن ترتيب السور ليس بواجب في الكتابة، ولا في الصلاة، ولا في الدرس، ولا في التلقين والتعليم، وأنه لم يكن من النبي ﷺ في

---

[1]- هو أبو الحسين أحمد بن فارس ابن زكرياء بن محمد بن حبيب اللغوي الرازي، صاحب المجمل في اللغة، وكان مقيما بمهمدان، وله رسائل حسان، أخذ عنه البديع صاحب المقدمات الهمداني بديع الزمان، قال ابن خلكان: توفي سنة: 390، وقيل سنة: 395هـ، والأول أشهر. انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ج11، ص 335، و- أبجد العلوم، ج3، ص 6.

[2]- السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 164.

[3]- هو ابن محمد بن القاضي عياض، بن موسى اليحصبي، السبتي، النحوي، قال عنه ابن الزبير: «ولد سنة: 584هـ، وأخذ عن أيوب بن عبد الله الفهري، وأخذ بالجزيرة الخضراء كتاب سيبويه، وتفقه عن أبي القاسم عبد الرحمن بن علي النحوي، وأخذ بها "الإيضاح" لأبي علي الفرسي، وأجيز سنة: 598هـ، وولي القضاء بغرناطة، إلى أن مات في جمادى الآخرة سنة: 655هـ، وتوفي أبوه عياض الفقيه سنة: 630هـ، بمالقة.». انظر: -سير أعلام النبلاء، ج20، ص 219. وكذلك تاريخ قضاة الأندلس، للمراكشي.

ذلك نص، ولا حد تُحرم مخالفته، ولذلك اختلف ترتيب المصاحف قبل مصحف عثمان*»[1]، إذ ينفي بشدة ورود أي دليل عن النبي ﷺ في تحديده، أو حتى إشارة إلى أن ترتيب السور أمر من الله تعالى، وجوز تنكيسه في أي حالة كان عليها القارئ سواء في الصلاة، أو في الدرس، أو غيره.

3- الإمام مالك[2]: وقد رأينا طرفا من رأيه سابقا، حيث يقول: إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ، مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم[3]. ولعله قصد "بما سمعوا منه"، الآيات في السور، وليس ترتيب السور نفسها. والله أعلم.

4- القاضي أبو بكر الباقلاني[4]: في أحد قوليه، حيث يقول: «يحتمل أن يكون ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من

---

* - يقصد بعض مصاحف الصحابة: مثل مصحف أبي بن كعب، ومصحف عبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم...

[1] - محمد يوسف القاسم، الإعجاز البياني، ص 257.

[2] - هو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، من ذي أصبح من حمير المدني، أحد أعلام الإسلام، وإمام دار الهجرة، سمع نافعا، والرهوي، وهشام بن عروة، وغير واحد من التابعين، وعنه من شيوخه الزهري ويحي الأنصاري، وخلق كثير، له ألف حديث، وله كتاب الموطأ، وهو أول مؤلفا في الإسلام، ولد سنة: 93هـ، وتوفي سنة: 179هـ. ابن خلكان، وفيات الأعيان.

[3] - ابن الزبير الغرناطي، البرهان، (مصدر سابق)، ص 183.

[4] - هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني، قاض من علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في المذهب الأشعري، ولد في البصرة، وسكن بغداد في العقد الرابع من القرن الرابع الهجري، من مؤلفاته: "الإبانة عن إبطال أهل الكفر والضلالة" وكتاب: "كيفية الاستشهاد في الرد على أهل الكفر والعناد، و"التمهيد"، وكتاب: "الإمامة"، و"الأصول الكبير في الفقه" و"إعجاز

الصحابة»[1]، حيث صرح باحتمال أن يكون ترتيب السور اجتهاد من الصحابة، وكأنه لم يقف على أدلة تشفي العليل، وتروي الغليل في ذلك، ولهذا هو يترنح بين قولين، وهذا أحد قوليه كما أسلفناُ، ثم يواصل فيقول: «وترتيب السور اليوم هو من تلقاء زيد ومن كان معه، مع مشاركة من عثمان رضي الله عنه في ذلك»[2]، ولقد حكا عنه الإمام السيوطي[3] في الإتقان قوله: «إن الأمة ضبطت عن النبي (ص) ترتيب آي كل سورة، ومواضعها، وعرفت مواقعها، كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة، وأنه يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد رتب سوره، وأن يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده، و لم يتول ذلك بنفسه، فقال: وهذا الثاني أقرب»[4]، ومن هؤلاء أيضا القائلين بهذا الرأي

القرآن"..وغيرها. أنظر: كتاب الباقلاني وكتابه القرآن، دكتور عبد الرؤوف مخلوف، منشورات دار مكتبة الحياة، 1998، بيروت، المقدمة. و- المعلم بفوائد مسلم: ج1، ص 527.

[1]- القاسم، الإعجاز البياني، (مصدر سابق)، ص 258.

[2]- ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز، (مصدر سابق)، المقدمة، باب: ذكر جمع القرآن، ص 49.

[3]- هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد، بن سابق الدين، بن عثمان بن الشيخ همام الدين الخضيري السيوطي الشافعي، ولد يوم الأحد، بداية رجب سنة: 849هـ، وكان أشعريا صوفيا، عالما جليلا أديبا فقيها، محدثا تاريخيا، يقول عن نفسه: رُزقت التبحر في سبعة علوم، توفي ليلة الجمعة من جمادى الأولى سنة 918هـ. انظر: -مقدمة طبقات المفسرين للسيوطي.

[4] - السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 163.

الإمام البقاعي[1]، والإمام الحرالي[2]، وابن الزبير الغرناطي، وجمهور العلماء كما قال السيوطي، ودليل هؤلاء جميعا هو:

أولا: الحديث الذي رواه مسلم، والنسائي عن حذيفة، حيث قال: ﴿صليت مع النبي(ص) ذات ليلة، فافتتح بالبقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فافتتح النساء...﴾[3]، وقال النووي: قال القاضي عياض في شرح هذا الحديث: «فيه دليل لمن يقول أن ترتيب السور اجتهاد من المسلمين حين كتبوا المصاحف، وأنه لم يكن ذلك من ترتيب النبي(ص) بل وكله إلى أمته بعده»[4]، ذلك أنه قرأ سورة النساء قبل سورة آل عمران، وأن ما عليه المصحف، إنما سورة آل عمران تسبق النساء في الترتيب، وهذا دليل على عدم التزامه ﷺ بهذا الترتيب.

---

[1]- هو العلامة برهان الدين إبراهيم بن محمد بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي الشافعي، المحدث المفسر الأديب المؤرخ، ولد سنة: 809هـ، في قرية "خربا روحا" بالقرب من دمشق، وكان كثير الترحال، توفي سنة: 885هـ، في ليلة السبت 18 رجب، ودفن خارج دمشق، من جهة قبر عاتكة. انظر البدر الطالع، ج1، ص 21.

[2]- هو أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي الأندلسي الصوفي المالكي المتوفى سنة: 637هـ. انظر كشف الظنون: ج2، ص 1768.

[3]- سبق تخريجه.

[4]- أحمد يوسف القاسم: الإعجاز البياني، (مصدر سابق)، ص 259.

ثانيا: يستدلون باختلاف مصاحف السلف، في ترتيب السور، فمنهم من رتبها على حسب تاريخ النزول، وهو مصحف علي رضي الله عنه، وكان أوله: إقرأ ثم نون، ثم المزمل فالمدثر...ثم بقية المكي والمدني، وكان أول مصحف عبد الله بن مسعود البقرة، ثم النساء، ثم آل عمران، وكذا مصحف أبي بن كعب، وهي على اختلاف كبير في الترتيب، وهذا الاختلاف الشديد بين المصاحف دليل على أنه لم يُنقل عن النبي ﷺ ترتيب معين، وإلا لما ساغ لهم أن يخرجوا عنه، وقد اكتفينا بإيراد هذين الدليلين، أو الحجتين، لأنهما أهم ما استند إليه أصحاب هذا الرأي.

القائلون بالتوقيف:

ويرى فريق من العلماء أن حال السور كحال الآيات، فهي بتوقيف من النبي ﷺ، وبأمره، وأوردوا أيضا أدلة على ذلك سنوردها بعد قليل، ومن العلماء الذين قالوا بتوقيفية ترتيب السور:

1- أبو بكر الأنباري[1]: إذ يقول في هذا الصدد: «.. وأنزل الله القرآن كله من السماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر حدث، والآية

[1]- هو الحافظ العلامة شيخ الأدب أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار النحوي، سمع من أبي العباس الكديمي، وإسماعيل القاضي، وأحمد بن الهيثم البزار، له تصانيف كثيرة، وكان يروي بأسانيده، ويملي من حفظه، صنف في القرآءات والغريب، والمشكل والوقف، والابتداء، وحدث عنه أبو عمر بن حيوية، والدارقطني، توفي ليلة عيد النحر ببغداد سنة: 328هـ، وله من العمر سبعة وخمسون سنة. انظر: -الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج3، ص 844.

جوابا لمستخبر، أو لمستجير، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية، أو السورة، فاتساق السور كاتساق الآيات، والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها، فقد أفسد نظم القرآن»[1] والكلام واضح لا يحتج إلى تعليق.

2/ أبو جعفر النحاس[2]: حيث يرى أن تأليف السور على هذا الترتيب هو من رسول الله ﷺ، واستند في ذلك إلى حديث واثلة المرفوع، والذي نصه كالتالي: قال رسول الله ﷺ: ﴿أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضلت بالمفصل﴾[3]، ثم علق على هذا الحديث، فقال: «وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبيﷺ، وأنه مؤلف منذ ذلك

---

[1]- أنظر: الزركشي: البرهان، ج1، ص 260، و- السيوطي، الإتقان، ص 165، و- تفسير القرطبي، ج1، ص 60، و- التذكار في أفضل الأذكار: ص 29/28.

[2]- هو أبو جعفر أحمد بن إسماعيل المصري النحوي، صاحب التصانيف، ارتحل إلى بغداد، وأخذ عن ترجمة أبو جعفر بن الزجاج، وكان ينظر في زمانه بابن الأنباري وبنفطويه، حدث عن محمد بن جعفر وبكر بن سهل، والحافظ النسائي، وغيرهم، وروى عنه أبو بكر محمد بن علي الأدفوي..، ومن كتبه: "إعراب القرآن" و"اشتقاق الأسماء الحسنى" وتفسير أبيات سيبويه، وكتاب: "المعاني"، و"الكافي في النحو"، و"الناسخ والمنسوخ" مات غريقا في النيل في ذي الحجة سنة: 333هـ، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج1، ص 231.

[3]- رواه أحمد في المسند: ج4 برقم: (107)، والطبراني في المعجم الكبير ج21، برقم: (187/176)، وج22، برقم (76/75)، والطيالسي برقم: (1012)، وفي مسند الشاميين، برقم: (2732).

الوقت، وإنما جُمع في المصحف على شيء واحد، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله ﷺ على تأليف القرآن»[1] .

3/ القاضي أبو بكر الباقلاني: وهو الآخر في كتابه: "الانتصار" حيث نقل عنه السيوطي قوله: «لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير»[2]، ويقول أيضا: «من أفسد نظم القرآن فقد كفر به»[3]، وحتى قول مالك وهو من القائلين بالاجتهاد، فيه شي يوحي بأن الحجة مقامة على من قال بهذا الرأي –الاجتهاد– حيث قال: «إنما ألفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله»[4]، وهو شامل للآيات والسور جميعا.

---

[1]– يوسف القاسم، الإعجاز البياني، (مصدر سابق)، ص 189. و– الزركشي: البرهان، (مصدر سابق)، ج3، 258.

[2]– السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 189.

[3]– يوسف القاسم، الإعجاز البياني، (مصدر سابق)، ص 264.

[4]– سبقت الإشارة إليه.

4/ ابن الحصار[1]: لا يبتعد هذا الأخير عن أصحاب هذا الرأي؛ بل إنه كان واضحا ومتيقنا أن هذا الرأي هو الصحيح، حيث قال: «ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها، إنما كان بالوحي، حيث كان رسول الله ﷺ يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا، وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب، هي تلاوة رسول الله ﷺ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف»[2]

5/ومنهم الطيبي[3]، **وابن وهب**[4] في جامعه، **وابن أشتة** في كتاب: "المصاحف"،

---

[1]- هو الإمام مقرئ الوقت أبو جعفر أحمد بن علي بن يحي بن عون الله الداني ثم المرسي الحصار، ولد في حدود سنة: 530هـ، تلا على أبي عبد الله بن سعيد، ورحل، وتلا بالسبع على أبي الحسن ابن هديل، ومن ابن النعمة ابن سعادة، تلا عليه محمد بن جوبر ، ومحمد بن محمد بن مشليون، مات في سفر 609هـ، وقال عنه ابن الزبير: «سمع في صغره من ابن الوليد ابن الدباغ، وجمع السبع على ابن سعيد». انظر: صلة الصلة لابن الزبير، ق26، ص 52.

[2]- يوسف القاسم، المصدر نفسه، ص 272.

[3]- هو ابن حمدان الطيبي المعروف بالصائن، أحد المعيدين بالنظامية، ودرس بالثقية، وكان عارفا بالمذهب، والفرائض، والحساب، صنف شرحا للتثبية، ذكره ابن الساعي، توفي سنة: 624 هـ. أنظر البداية والنهاية: ج13، ص 122.

[4]- هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري القرشي، مولاهم المصري، روى عن خلق منهم مالك، ويُعد من أصحابه، توفي سنة: 197هـ. انظر الديباج: ج1، ص 413.

والإمام البغوي[1] في شرح السنة، **وبرهان الدين الكرماني**[2] في كتابه "البرهان في متشابه القرآن" وغيرهم كثير، وكلهم يستدلون بأن القرآن كله قطع من اللوح المحفوظ، وهو بترتيب معين، ثم نزل منجما حسب الحوادث، ثم بعد ذلك أعيد في المصاحف على الترتيب الأول، وهذا لا يكون إلا بتوقيف من الله ورسوله، وما تعاهده الناس منذ عهد النبوة، من هذا الترتيب، ولم يجدوا لذلك مخالفا، وهو عمل النبي ﷺ، وتكراره لقراءة القرآن بنفس هذا الترتيب طوال حياته، وفي المناسبات، والأعياد، والجمع والجماعات، والتعليم وغيره، وما تعله الصحابة منه، وما نقلوه إلى التابعين من بعدهم... إلى يوم الناس هذا.

القائلون بالتفصيل:

وهم الذين فصلوا في المسألة، وحاولوا أن يقفوا موقفا وسطا وهم كثير نذكر منهم:

---

[1]- هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، المفسر صاحب التصانيف، مثل: "شرح السنة" و"معالم التنزيل" و"المصابيح" وكتاب: "التهذيب" و"الجمع بين الصحيحين"... تفقه على يد شيخ الشافعية القاضي حسين بن محمد المروذي صاحب التعليقة....توفي بمرو الروذي مدينة من مدن خراسان في شوال سنة: 615هـ، وعاش بضعا وسبعين سنة. انظر ترجمة الأعلام. الشبكة الإسلامية.

[2]- هو حسَّان بن إبراهيم الكرماني قاضي كرمان، روى عن عاصم الأحول، وقال عنه صاحب المغني: كان ثقة، وقال أبو زرعة: لا يأمر به وقد خرج له الشيخان، وأبو داود، توفي سنة: 186هـ. انظر شذرات الذهب: ج1، ص 309.

1- ابن عطيّة الأندلسي[1]: إذ ذهب بالقول أن كثيرا من السور كان ترتيبها معلوما في حياة النبي ﷺ

وذلك كسور السبع الطوال المبدوءة بسورة البقرة، ثم الحواميم، والمفصل، وأما ما سوى ذلك من سور فقد خولت الأمة بترتيبه بعد النبي (ص)[2]، حيث قال في مقدمة تفسيره: «وظاهر الآثار أن السبع الطوال، والحواميم، والمفصل، كان مرتبا زمن النبي، وكان في السور ما لم يرتب؛ فذلك الذي رُتب وقت الكتب»[3].

2- البيهقي[4]: حيث يقول في المدخل: «كان القرآن على عهد النبي ص مرتبا سوره وآياته على هذا الترتيب: الأنفال، ورآءة، لحديث ابن عباس، قال: قلت لعثمان:

---

[1]- هذا الرأي ذكره القاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي، في كتابه: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة1، دار الكتب العلمية، 1993م، بيروت، لبنان، ج1، ص 50.

[2]- أمير عبد العزيز، دراسات في علوم القرآن، ص 114.

[3]- ابن عطية، مقدمة التفسير، ص 50.

[4]- هو أحمد بن الحسين، بن علي بن عبد الله بن موسى أبو بكر البيهقي، له تصانيف مثيرة، ولد سنة: 384هـ، وكان أوحد أهل زمانه في الإتقان والحفظ، والفقه، وكان محدثا فقيها أصوليا، أخذ العلم عن الحاكم أبي عبد الله النيسابوري، ألف: "السنن الكبرى، و"نصوص الشافعي" في 10 مجلدات، و"السنن الصغير" و"الآثار و"المدخل" و"الأدب" و"شعب الإيمان" و"دلائل النبوة"... توفي بنيسابور، ونقل تابوته إلى بيهق في جمادى الأولى، أنظر البداية والنهاية، لابن كثير، ج12، ص 94.

ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال..»[1]، وهذا يدل على بعض السور كان مرتبا لا كل السور.

3- أبو جعفر ابن الزبير: حيث يفصح عن رأيه المؤيد لابن عطيّة الأندلسي، فيقول: «وظاهر الآثار شاهدة بصحة ما نص عليه ابن عطيّة، ثم يبقى بعد ذلك قليل من السور يمكن أن يجري فيها الخلاف»[2]وخلاصة هذا الرأي أن ه قد جاءت الآثار والأحاديث عن رسول الله ﷺ تأكد أن كثيرا من ترتيب السور كان معروفا، معهودا في حياة النبي ﷺ منها أحاديث تكلمت عن السبع الطوال، والحواميم، والمئين والمفصل، والمثاني... مثل حديث أنه صلى الله عليه وسلم جمع المفصل في ركعة، وحديث البخاري: أن ابن مسعود قال: قال رسول اللهﷺ: ﴿بني إسرائيل –الإسراء- والكهف ومريم وطه والأنبياء – بهذا الترتيب – هن من العتاق الأول وهن من تلادي﴾[3] ، ومنها حديث عائشة: ﴿حينما يؤوي النبي إلى فراشه فيقرأ وينفث في كفيه...﴾[4].

---

[1]- وقد سبق تخريجه.

[2]- ابن الزبير، البرهان في ترتيب سور القرآن، (مصدر سابق)، ص 185.

[3]- من العتاق الأول: يعني أول ما نزل، ومن تلادي: يعني من قديم ما حفظت وعلمت.

[4]- صحيح البخاري: 121/2، (سبق تخريجه).

وأما السيوطي فقد قال: «ينبغي القول بأن محل الخلاف إنما هو خاص بترتيب سور الأقسام الربعة، وأما نفس الأقسام من الطول[1]، ثم المئين[2]، ثم المثاني[3]، ثم المفصّل[4]، فلا خلاف في ترتيبها إجمالا، فهذا يقتضي القطع بأنه توقيفي، وأنه يدعي فيه الإجماع»[5]، ويبني هذا القول على ما تقدم من الأحاديث الصحيحة، وعلى حديث ابن عباس خاصة في الأنفال والتوبة، وأيضا على أن المصاحف التي وقع فيها الاختلاف في الترتيب، اتفقت على هذا الترتيب، وكان اختلافها في ترتيب سور كل قسم، حيث قال: «فإذا تحرى ذلك أي من اتفاق المصاحف في ذلك القسم من الطوال والمثاني

---

[1]- وهي السور الطويلة في القرآن، وتبدأ بـــ: البقرة، وآخرها التوبة، وقيل إلى براءة لأنهم كانوا يعدونها والتوبة سورة واحدة، لعدم فصلها ببسملة، وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، و(الأنفال+براءة).

[2]- سميت كذلك لأن كل سورة تزيد فيها على 100 آية، أو تقاربها، وهي التي تلي السبع الطوال.

[3]- سميت بالمثاني لتثنية الأخبار، والقصص فيها، وكذلك العبر والأمثال، فإنها كثيرا ما ترد في القرآن مثناة، وهي ما يلي المئين، وهي ما كانت السورة فيها أقل من مائة آية، وقد تطلق المثاني على الفاتحة، لقوله تعال: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم.﴾ .

[4]- وهو قصار السور، وسميت بذلك لكثرة الفصول بين السور بالبسملة، وقيل لقلة ما يرد فيها من منسوخ، وهو يبأ من سورة "ق" وقيل غير ذلك- بلغت 12 قول- وتنتهي بآخر سورة منه وهي: "الناس".

[5]- السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 162.

والمئين، ونظرا إلى محل الخلاف، فالمختار عندي في ذلك ما قاله البيهقي، وهو أن كل السور توقيفية، إلا الأنفال وبراءة»[1]. والله أعلم.

مناقشة الأقوال السابقة:

لقد سردنا أراء العلماء في ترتيب القرآن الكريم، ولاحظنا أنهم يتفقون، في ترتيب الآيات، ولكنهم يختلفون في ترتيب السور، وهل هو من قول النبي أم هو من فعله؟

إن كان القرطبي[2] يرى في الجامع لأحكام القرآن أن تأليف السور على ما هو عليه في مصحفنا كان عن توقيف من النبي ﷺ [3]، فإن السيوطي يرى أن جمهور العلماء على الثاني[4]، وهو أن الترتيب اجتهاد من الصحابة، وبين الرأي الأول والثاني رأي آخر مفاده: أن جُلَّ الترتيب كان توقيفيا، وبعضه فيه اجتهاد، وهذا الموقف يتبنا الشيخ ابن الزبير والبيهقي.

وأما استدلال المخالفين بأن مصاحف الصحابة: علي، وابن مسعود أب وابن عباس...وغيرهم لم تكن على الولاء الذي رتب عليه عثمان مصحفه، وأن هذا الاختلاف يدل على أنه لم ينقل عن النبي ﷺ شيء فيه، وغلا ما ساغ لهم تجاوزه، فإن

---

[1]- يوسف القاسم: الإعجاز البياني، [نقلا عن تناسق الدرر للسيوطي]، ص 48، ص 262.

[2]- هو عبد الرحمن بن مروان أبو المطرف الأنصاري القرطبي كان عالما في التفسير والأحكام بصيرا بالحديث، حافظا للرأي ورعا زاهدا مجاب الدعوة، وله معرفة باللغة العربية والأدب، صنف شرح الموطأ، ومختصر تفسير القرآن لابن سلام، وكتاب في الشرط، وروى عنه ابن عتاب، وابن عبد البر، وكان مولده سنة: 341هـ، ومات في رجب سنة: 413، انظر السيوطي، طبقات المفسرين، ص64.

[3]- القرطبي، الجامع، ج1، ص 60.

[4]- السيوطي، افتقان، ص 164.

الاختلاف ليس دليلا على أنه ليس توقيفيا، فإن مصاحفهم لم تكن مصاحف تلاوة، بقدر ما هي مصاحف علم وتأويل، قصد بها ضبط وقائع معينة، فقد كُتب فيها المنسوخ تلاوة، وبعض الأدعية كالقنوت، وتفسير بعض الآيات وغيرها.

ومن كلام اللجنة المؤلفة لوضع تقرير عن كتابة المصحف المرتل وهم السادة: الشيخ عبد الوهاب غزلان، والأستاذ أحمد السيد الكومي، والأستاذ محمد عبد الوهاب بحيري، لتقييم كتاب الأستاذ لبيب سعد (المصحف المرتل)، ص: 20 ما يلي: «أما الروايات التي ذكرها السيوطي لإثبات أن بعض الصحابة كان لهم مصاحف، خالفت مصحف عثمان، في ترتيب السور، فهي واردة في كتب لم يلزم مؤلفوها الصحة فيما يرونه فيها، وعلى فرض صحتها، فذلك كان قبل جمع عثمان بن عفان (ض)، الذي أجمع عليه الصحابة، وفيهم أصحاب هذه المصاحف، والتي أمرهم عثمان بحرقها، فأحرقوها، فلا يليق بعد هذا أن ينسب إليهم أنهم يخالفون مصحف عثمان، في ترتيب السور، أو بعضها»[1].

وأما سبب الاختلاف هذا بين المصاحف في عهد النبي ﷺ إنما كان بسبب عدم جمع القرآن كاملا بين دفتين أولا، ثم إن الصحابي عندما يسمع سورة أو آيات نزلت على رسول الله ﷺ، فإنه يسارع لكتابتها، وحفظها، ولكن قد يفوته شيء لم يسمعه من النبي، فإذا حضر بعد ذلك، حَفِظَهُ، وكتبه خلاف لمن يسمع بعدن أو من سمع قبله، وقد كان الصحابة منشغلون بمعايشهم، ومسؤولياتهم الخاصة، والعامة، كالجهاد في سبيل الله وغيره، ولم يكونوا متفرغين لطلب العلم، وكانوا يتداولون على مجالس رسول الله ﷺ، كما حدث مع عمر وأحد الأنصار، إذ كانا يسكنان أعالي المدينة فكانوا

[1]- المصحف المرتل: ص 20.

يتناوبان عليه[1]، «ويُأخذ منه أن بعض الصحابة كانوا يتغيبون مجالس رسول الله جريا وراء متطلبات الحياة أو بسبب المرض أو الجهاد، أو غير ذلك، فإذا نزل القرآن في هذه الحالة، فلا يدري مقدمه، ومؤخره، وإن علم ذلك وقد كتبه على ما كان أولا، وترك تغييره على ما استقر عليه...، اعتمادا على حفظه، فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى، واحتيج إلى جمع القرآن، بين دفتين على ما انتهى عليه الأمر بعد العرضة الأخيرة، جمعه الصحابة على هذا، وأجمعوا على هذا الترتيب»[2].

وأما من استدل بحديث حذيفة، وفيه أن سورة النساء كانت آنذاك مقدمة على آل عمران، فيتناول قراءته صلى الله عليه وسلم سورة النساء أولا، ثم آل عمران، هنا على أنه كان قبل التوقيف والترتيب[3]...ويقول السيوطي في هذا الصدد: «ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سورا ولا آية على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يُرد حديثه قراءته سورة النساء قبل آل عمران، لأن ترتيب السور في القرآن ليس بواجب، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز»[4]، وكأن السيوطي يناقض ما ذهب إليه من القول بالاجتهاد، وهو الأقرب.

وفي حديث مسلم أيضا عن جابر أن معاذ صلى بالناس العشاء، وافتتح بالبقرة، وطول بأصحابه، وفيه أقبل رسول الله على معاذ فقال: ﴿أفتان أنت؟ إقرأ بكذا، واقرأ بكذا﴾، فقال سفيان: قلت لعمرو: إن أبا الزبير حدثنا عن جابر أنه قال: ﴿إقرأ

---

[1]- صحيح البخاري، ج1، ص 33.

[2]- القاسم، الإعجاز البياني، (مصدر سابق)، ص 273.

[3]- محي الدين النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر للطباعة والنشر: 1981م، (د،ط)، ج6، ص 62.

[4]- السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 167.

والشمس وضحاها، والضحى والليل إذا يغشى، وسبح اسم ربك الأعلى﴾، فقال عمرو: نحو هذا[1]، وفي رواية أخرى عن جابر أيضا: ﴿إذا أممت الناس فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى، واقرأ بسم ربك، والليل إذا يغشى﴾[2]، فإن هذه الأحاديث ونحوها لا تعكر صفو التوقيف، فإن ترتيب ابن مسعود لا وجود له، بعد أن أحرقت المصاحف، وإجماع الصحابة على مصحف عثمان، ثم إن ذلك إن ويُجد فقد كان قبل العرضة الأخيرة التي رُتب عليها المصحف العثماني.

وقد كان النبي يختم القرآن كل سبعة أيام ونهى عن أقل من ذلك، وكيف يختمه إن لم يكن مرتبا بحسب ما رتبه له جبريل عليه السلام، ثم إن عثمان بن عفان كان يختم القرآن كله، وقد أخذه عن رسول الله حفظا وترتيبا، حتى روي عنه أنه كان يختم القرآن في ركعة واحدة، وكان الصحابة يحزِّبون القرآن ثلاث، سورة وخمس، سورة وسبع، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من "ق" حتى الختام[3]، وحينئذ فلو عددنا 48 سورة كانت التي تليهن "ق" وهذا هو حزب المفصل حتى نهاية السور الكريمة، وهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه في المصاحف كان على عهد رسول الله ﷺ[4]، وقال الزركشي: «لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم:

---

[1]- النووي على مسلم، (مصدر سابق)، ج4، ص 181.

[2]- ابن علي الشوكاني: نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، دار الفكر للطباعة، بيروت، (د،ط)، ج2، ص 237.

[3]- الفتح الرباني: على مسند الإمام أحمد، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، ط1، 1953هـ ص 18-28-29.

[4]- يوسف القاسم: الإعجاز البياني، (مصدر سابق)، ص 278.

- إحداها: بحسب الحروف في الحواميم.
- ثانيها: موافقة أول السورة لآخرها قبلها، كآخر الحمد في المعنى، وأول البقرة.
- ثالثها: في اللفظ كآخر تبت يدا، وأول الإخلاص.
- رابعتها: لمشابهة جملة السورة لجملة أخرى مثل الضحى والشرح»[1]

الترجيح:

لقد عرضنا فيما سبق أقوال العلماء وآرائهم في ترتيب المصحف، وخاصة السور، لأن ترتيب الآيات محل اتفاق بينهم، ثم عرضنا أدلة كل فريق، وناقشناها في ضوء ما توفر لنا من فهم ووعي وتوجيه لأدلتهم، وترجيح لآرائهم، وها نحن نخلص الآن إلى ترجيح أسدد الأقوال، وأقواها آملين أن نحظى بالصواب، وراجين من الله أن نقف على قناعة كاملة في هذا الموضوع.

يقول يوسف القاسمي: «... بل الجمهور على الأول -يعني التوقيف- والأدلة تبين ذلك، حتى ما استدل به المخالف لا يستقيم، وإجماع الصحابة، أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما، ولم يدع لهم مجالا لأدنى وهم، بأن صرح لهم النبي ﷺ، بمواضع السور، أو رمز إليهم بذلك..»[2]، ونستأنس بقول الألوسي في توجيه هذا الرأي في قوله: «فلا بد من التصريح بمواضع الآي، والسور، إما من الرمز إليهم بذلك، وإما بإجماع الصحابة على هذا الترتيب، وعدولهم عما كان أولا من بعضهم على غيره من الأساليب —وهم الذين لا تلين قناتهم لباطل، ولا يصدهم عن إتباع الحق لومة لائم، ولا قول قائل- أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما ولم يدع لهم تخيلا

[1]- الزركشي: البرهان، (مصدر سابق)، ج1، ص 260.

[2]- المصدر السابق، ص 286.

ولاوهما»[1]، ويرى الزركشي أن الخلاف يعود للفظ، لأن القائل بالاجتهاد يقول إنه رمز إليهم بذلك، لعلمهم بأسباب نزوله، ومواقع كلماته، ولهذا قال الإمام مالك: «إنما ألفوه على ما سمعوه منه ﷺ»[2]، ويعني الزركشي أن الصحابة لم يسمعوا نصا صريحا في الشكل، فقد علموا من أحواله ﷺ ما أفادهم في ترتيب، ما لا نص فيه، وهذا هو معنى قول القائل بالاجتهاد، فالأخذ برمزه وإشارته ﷺ، لا ينافي عدم التصريح بالترتيب، ولكن هل الأمر كذلك؟ [3].

ويقول الدكتور يوسف القاسمي: أنه لا خلاف بين القائلين بالاجتهاد والقائلين بالتوقيف، وبعد هذا يبقى الكلام في الترتيب بالرمز والإشارة هل هو من باب الاجتهاد أو التوقيف؟[4]

ولا شك أن فعل النبي ﷺ وتقريره وكلامه هو من باب التصريح، لا من باب الرمز والإشارة، فإن صح عنه شيء من هذا دخل حيز التوقيف، ولن تجد أبدا سورة من سور القرآن، إلا وهي موضوعة في مكانها الذي وضعها فيه رسول الله ﷺ، وقد نقل الصحابة ذلك من قراءته وتعليمه، وأحواله كلها في الصلوات أو في غيرها، ووقع إجماعهم على ترتيب المصحف على ما هو عليه اليوم، ولا يجمعون إلا على مستند صحيح، صريح، وإذ قال ابن الزبير: «...فكيفما دار الأمر فمنه ﷺ عرف ترتيب

---

[1]- أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الفكر، طبعة: 1983م، بيروت، لبنان، ج1، المقدمة، ص 27.

[2]- ابن الزبير، البرهان، (مصدر سابق)، ص 182.

[3]- الإعجاز البياني، (مصدر سابق)، ص 270.

[4]- المصدر نفسه، والصفحة أيضا.

السور، وعلى ما سمعوه منه بنو جليل ذلك النظر»[1]، ويجيب أيضا ابن الزبير عن السؤال السابق بأن هذه الآثار إنما وقعت بفعل، لا بقول، وأمر يحصل منه التوقيف[2].

والقول الراجح من ناحية إعمال الأدلة، وتوجيهها، وعلى ضوء فهمها، وهو أن سور القرآن الكريم كلها توقيفية، بأمر رسول الله ﷺ، وحتى سورتي الأنفال والتوبة، كما بينا في موضعه عند حديث عثمان لما سأله ابن عباس، فأجاب: وقد قبض رسول الله دون أن يبين إن كانت براءة تابعة للأنفال، وفي ذلك، دلالة على أن النبي ﷺ، كان قد بين ترتيب كل سور القرآن، لأن سؤال ابن عباس، لم يكن عن الترتيب؛ بل عن الفصل، بين السورتين بالبسملة، هل هي منها؟ يعني من نفس السورة أم تعتبر سورة مستقلة لوحدها؟ وهذا لا يقدح أبدا في هذه المسألة من جهة، ومن جهة أخرى فإن الذي تطمأن إليه القلوب، وتركن إليه النفوس، أن مثل هذه القضية، لا ينبغي أن تناط بالصحابة، إذ أن ترتيب السور، أمر من الأهمية بما كان، ذلك لارتباطه بمسألة النظم والإعجاز القرآني، فلا ينبغي لأحد كائن من كان، أن يمس نظم القرآن الكريم وترتيبه. والله أعلم.

[1]- ابن الزبير، البرهان، (مصدر سابق)، ص 183.

[2]- المصدر نفسه، ص 187.

وهذا مخطط بياني يساعد على اختيار الرأي الصحيح:

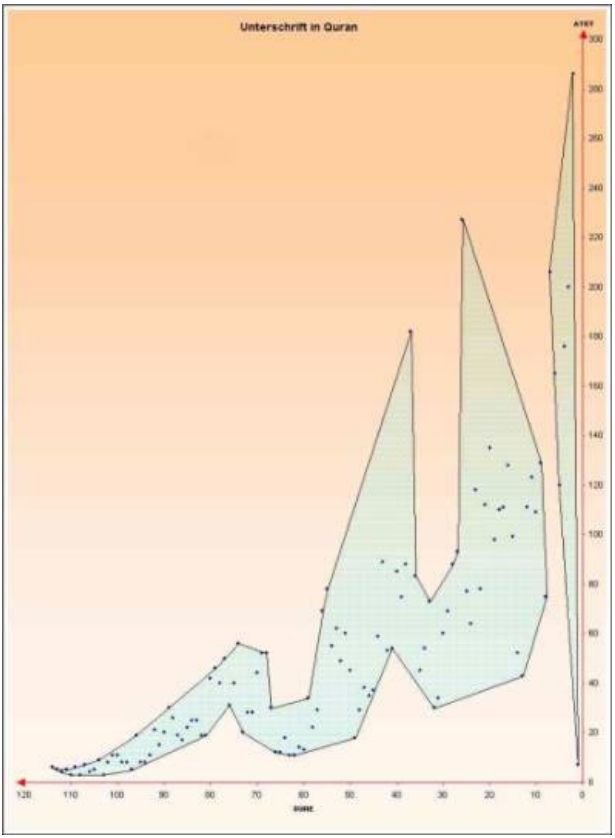

مخطط بياني يمثل أرقام سور القرآن وعدد آياتها، والنتيجة لا يتوقعها أحد: لفظ الجلالة: **الله**

المبحث الثاني: الترتيب النزولي للقرآن الكريم

معلوم أن القرآن الكريم قد كتب في اللوح المحفوظ منذ الأزل، إلى أن أرادت مشيئة الله أن يكون آخر ما ينزل من كلام الله تعالى إلى الأرض، مع مجيء محمد رسول الله(ص)، آخر نبي للبشر، فقطع من اللوح المحفوظ في السماء السابعة، وأنزل جملة واحدة إلى بيت العزة في سماء الدنيا، في ليلة هي خير من ألف شهر في السابع والعشرين من شهر رمضان، ثم نزل بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الوقائع والمناسبات في ثلاث وعشرين سنة[1] وكانت بداية نزوله يوم الاثنين عام ست مائة وعشرة ميلادي على رسول الله في غار حراء، وأول ما نزل منه قول تعالى: ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق**﴾[2]، قال ابن عاشور: ونزل القرآن نجوما بحسب أسباب النزول، التي تعتبر حوادث يُروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها، أو لبيان حكمها، أو لحكايتها، أو إنكارها، أو نحو ذلك[3]، وقد اهتم الصحابة رضي الله عنهم ببيان زمان، ومكان نزول الآيات، وأين؟ وبسبب ماذا؟ فقد كان ابن مسعود قلم الوحي يقول: «سلوني ما بدا لكم فما من آية نزلت إلا أعلم في من نزلت وأين نزلت»[4]، وقال بن عباس رضي الله عنهما: «سألت أبي بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة فقال نزلت بها سبعة

---

[1]- انظر مختصر ابن كثير، محمد علي الصابوني، قصر البليدة، دار الشهاب 1990، ج3، ص 659.

[2]- سورة العلق، الآية 1.

[3]- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1998م، المقدمة الخامسة، ج1، ص 46.

[4]- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: فؤاد أحمد زمولي، دار الكتاب العربي، 2004م، بيروت، ص 37.

وعشرون سورة، وسائرها بمكة»[1]، وقال ابن العربي في كتابه الناسخ والمنسوخ: «الذي علمناه على الجملة من القرآن أن منه مكيا ومدنيا، وسفريا وحضريا، وليليا ونهاريا، وسمائيا وأرضيا، وما بين السماء والأرض، وما نزل تحت الأرض في الغار»[2]، وكلما نزلت آيات إلا بادر الصحابة بكتابتها في موضعها بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من عند أنفسهم، فلقد عاشوا زمان نزوله؛ فهم أعلم الناس به، وأضبطهم له من ناحية ترتيبه، وتحصيله في الرقاع، وفي الصدور، ولقد اهتم العلماء بضوابط القرآن المكي والمدني، ومنهم من أفرده بمصنفات، وتتبعوا مواطن نزوله وترتيبه وزمن وروده[3]...الخ.

وقد أورد السيوطي في الإتقان، والزركشي في البرهان ترتيب السور حسب زمن نزولها فكان أولها: إقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم القلم، ثم المزمل، فالمدثر، فالمسد، ثم سورة التكوير، ثم سبح، ثم والليل، ثم ألم نشرح لك، ثم سورة العصر، العاديات، الكوثر، ألهاكم، الماعون، الكافرون، الفيل، الفلق، الناس، الصمد، النجم، عبس، الشمس، البروج، التين، يس، الفرقان، الملائكة، مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، الإسراء، يونس، هود، يوسف، الحجرات، الأنعام، الصافات، لقمان، سبأ، الزمر، الأحقاف، الذاريات، الغاشية، الكهف، النحل، ثم إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون، السجدة،

---

[1]- المصدر نفسه، ص 35

[2]- الناسخ والمنسوخ لابن العربي.

[3]- منهم: مكي والعز الدربيني: وهو عبد الله بن أحمد بن سعيد بن عبد الله الدربيني الشافعي، أبو محمد، ولد سنة 612هـ، وتوفي سنة 694هـ، من مؤلفاته: "المصباح المنير في علم التفسيّر"، و"طهارة القلوب" و"الخضوع لعلام الغيوب"، وغيرها. انظر شذرات الذهب، ج5، ص 450، ومعجم المؤلفين، ج5، ص 241.

الطور، الملك، الحاقة، سال سائل، عم، والنازعات، الانفطار، الانشقاق، الروم، العنكبوت، المطففين، كل هذه بمكة.

ثم أنزل بعد الهجرة، البقرة والأنفال، آل عمران، الأحزاب، الممتحنة، النساء، الزلزلة، الحديد، محمد، الرعد، الرحمن، الإنسان، الطلاق، البينة، الحشر، النصر، النور، الحج، المنافقون، المجادلة، الحجرات، التحريم، الجمعة، التغابن، الصف، الفتح، المائدة، براءة، وهذا ما نزل بالمدينة[1].

واختلفوا في نزول الفاتحة، وويل للمطففين، فمنهم من قال بمكة، ومنهم من قال بالمدينة[2].

ومن المواقف التي أعجبتني في هذا الصدد، موقف سيد قطب رحمه الله تعالى، حيث كانت لديه فكرة إمكانية ترتيب القرآن الكريم حسب زمن النزول، وتفسيره على هذا المنوال، لكنه تراجع عن ذلك في آخر الأمر، وهو بذلك يتفق مع جمهور العلماء من المفسرين، والباحثين في علوم القرآن، بأن ترتيب الآيات في السور ليس على أساس زمن النزول ولا مكانه، إنما هو ترتيب توقيفي؛ أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم أمر الصحابة بذلك فالتزموا بأمره في كتابتهم القرآن وجمعه.

ولقد جاء في كتاب المنهج الحركي لعبد الفتاح الخالدي: «أما ترتيب السور في المصحف فيبدو أن سيد قطب قد اقتنع بعد تجربته في عرضه للسور في كتابه "مشاهد

[1]- السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 38.

[2]- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 194.

القيامة في القرآن" حسب النزول، باستحالة الجزم بالترتيب على هذا الأساس، وبخطورة الآراء التي تنتج عن ذلك بمخالفة ذلك لاتفاق المسلمين منذ زمن عثمان إلى العصر الحديث»[1]

وفي ذلك يقول سيد قطب في تقديمه لسورة الأنفال: «إن الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء –اللهم من ناحية أن هذا قرآن مكي وهذا مدني على وجه الإجمال، على ما في هذا من خلافات قليلة- فأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن النزول، كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة فيكاد يكون متعذرا»[2]، بحيث لم تثبت فيه روايات وآثار صحيحة إلا نادرا، كما جاء على لسانه قوله: «ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئا مستيقنا إلا في آيات معدودات تتوافر بشأنها الأحاديث، أو تقطع بشأنها بعض الروايات...»[3].

ورغم أن سيد قطب قد أبدى رأيه في أهمية هذا الترتيب، فإنه تمنى لو أن الصحابة نقلوه وأثبتوه لما له من أثر ودلالة حركية تربوية، ومنهجية، حيث يمكن تصور منهج الحركة الإسلامية، ومراحلها وخطواتها، ولأن قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقا، كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية، وليست نهائية قطعية[4].

وترتيب السور في القرآن إنما هو بتوقيف من الله تعالى على الرغم من نزول آيات السور في فترة زمنية طويلة، ولمناسبات، وأسباب، وملابسات شتى، فنزول

---

[1]- صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار الشهاب، الجزائر، ج2، ص311.

[2]- سيد قطب، تفسير الظلال، الطبعة 10، دار الشروق، 1982م، القاهرة، ج3، ص 1429.

[3]- الخالدي، المنهج، (مصدر سابق)، ص 312.

[4]- سيد قطب، مقدمة الظلال.

الآيات شيء، وترتيبها في السور شيء آخر، ويستدل على ذلك ببعض الآثار والروايات...ويرى سيد قطب أيضا أن ترتيب السور ليس على أساس النزول إذ لا يعني وجود سورتين متواليتين في المصحف نزولهما متتابعتين؛ بل بينها فترة زمنية متطاولة، وأصدق مثال على ذلك ما قاله عن سورة الفيل وقريش في خاتمة تفسير السورة بأن: «..وهذه السورة تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوِّها، وإن كانت مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بينها وبين سورة الفيل تسع سور، ولكن ترتيبها في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب»[1]، وما يقوله بعض العلماء السابقين في ترتيب سور القرآن حسب نزولها ليس يقينا، فإنهم يرتبون السور حسب نزولها، ومنهم الإمام محمد بن شهاب الدين الزهري[2] في كتابه: "تنزيل القرآن".

ولّما طبع المصحف في المطبعة الأميرية ببولاق مصر- أشاروا في التعريف بالسور إلى ترتيبها حسب النزول، الفاتحة نزلت بعد المدثر،وآل عمران بعد الأنفال، والنساء بعد الممتحنة، والمائدة بعد الفتح، والأنعام بعد الحجر في مكة وهكذا...[3]

ولو تتبعنا كل ما قاله العلماء في هذه المسألة لطال بنا المقام ولهذا اكتفينا بما قدمنا في هذا المبحث.

---

[1]- المصدر السابق، ج6، ص 3183.

[2]- هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب بن الحارث بن عبد الله الزهري، الإمام العالم، أبو بكر القرشي المدني، نزيل الشام، روى عن ابن عمر، وجابر، وكان مولده سنة 50 أو 51هـ، وتوفي سنة 124، وهو ابن 72سنة في 17رمضان منها، وكان موته بأدما بأعمال فلسطين. انظر أعلام الموقعين.

[3]- رسالتين لابن الأبار وابن تيمية في سلسلة رسائل ونصوص، رقم3، دار الكتب الجديدة، عام: 1963م.

المطلب الأول: حقيقة دعوى إعادة ترتيب القرآن حسب النزول.

لقد رتب القرآن الكريم على نمط فريد من نوعه، وعلى هندسة متقنة أرادها الله تعالى، فهو باب من أبواب إعجازه كما أسلفنا، وقد جاء هذا المعنى في كثير من الآثار نذكر منها:

– قال محمد بن سيرين[1] لعكرمة[2] أيّام الجمع الأول للقرآن: «ألّفوه كما أُنزل الأول فالأول، فقال عكرمة: لو اجتمع الإنس والجن على أن يألفوه ذلك التأليف ما استطاعوا»[3]، وقد ألّف الصحابة مصاحف خاصة بهم، مرتبة ترتيبات مختلفة، ومحشوة بالقراءات الشاذة، وبعض التفسيرات، ولكن سرعان ما عادت الأمة، واجتمعت على مصحف واحد، ضاربة بعرض الحائط كل ما خالفه في شاردة أو واردة، وتم حرق المصاحف الأخرى، وانتهى الأمر على ذلك، وأذعن كل الناس لمصحف عثمان، واعتمدوه دون أي اعتراض.

---

[1]– هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري، ولد سنة (33هـ/653م)، فعمل بها جزارا، وكان في أدنه صمم، مع دلك تفقه ودرس الحديث، وكان من المحدثين التابعين المشهورين، وقد عاصر حسن البصري، واشتهر بتعبير الرؤيا، وحجة في تفسير الأحلام.

[2]– هو عكرمة الحبر العالم أبو عبد الله البربري، ثم المدني الهاشمي، مولى بن عباس، روى عن مولاه، وعن عائشة، وعن أبي هريرة، وعقبة بن عامر، وأبي سعيد، وغيرهم، وحدث عنه خلق كبير، منهم أيوب، وأبو بشر، وعاصم الأحول، وثور بن زيد، وخالد الحداء، قال ابن خالد: «إدا قدم عكرمة البصرة أمسك الحسن عن الفتيا والتفسير» توفي سنة107هـ بالمدينة، انظر تذكرة الحفاظ، للذهبي، ج1، ص 95.

[3]– السيوطيّ، الإتقان، (مصدر سابق)، ص 155.

– كما أن تفسير بعض العلماء[1] لبعض أجزاء القرآن ليس دعوة إلى إعادة ترتيب المصحف وإن كان منهم من ادعى ذلك كما سنرى، وعلى رأسهم يوسف راشد، ومحمد عزت دروزة الذي توسع في هذه الدعوى؛ وبالفعل فقد أنجز تفسيرا على الترتيب النزولي، وكذلك عائشة بنت عبد الرحمن، معززين رأيهم بأن: «التفسير ليس مصحفا مرتلا، وإنما هو عمل فني مستقل ليس له علاقة بقدسية ترتيب المصحف»[2].

وقد اعتمد أصحاب هذه الدعوى إلى فتوتين:

إحداهما: لمفتي سوريا الشيخ أبو اليسر عابدين، ونصها: «ليس التفسير بقرآن يُتلى، حتى يُراع فيه ترتيب الآيات، والسور، فقد يمكن للمفسر أن يفسر آية، ثم يترك ما بجانبها لظهور معناها، وقد يفسر سورة، ثم يترك ما بعدها اعتمادا على فهم التالي، ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور، والله أعلم».

والأخرى: لعبد الفتاح أبو غدة، جاء فيها: «إن شبهة المنع لهذه الطريقة، آتية من جهة أنها طريقة تخالف ما عليه المصحف الشريف، ودفعها أن المنع يثبت فيما فيها لو كان هذا الصنيع سلوكا من أجل أن يكون هذا الترتيب مصحفا للتلاوة... ويستأنس لسواغية هذه الطريقة بما سلكه أجلة من علماء الأمة المشهود لهم بالإمامة والقدوة من المتقدمين في تآليفهم، و لم يعلم أن أحدا أنكر عليهم ما صنعوا»[3].

---

[1]– من القدماء ابن تيمية، وهشام الكلبي، ومن المحدثين: محمد عبده، وعبد الحميد بن باديس، والدكتورة بنت الشاطئ، والمراغي، وأبو الأعلى المودودي، وأمين الخولي، ومحمد عزت دروزة، وأسعد أحمد علي وغيرهم.

[2]– عزت دروزة، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، ط 1962م، مصر، المقدمة: ص 9.

[3]– عزت دروزة، مقدمة التفسير: ص 711.

المطلب الثاني: تفسير ورد هذه الشبهة.

لقد عمل أعداء الدين قديما وحديثا على بث سمومهم ونفثها في عقيدة هذه الأمة، وعلى إيجاد أي ثغرة وأي مدخلا يشككون من خلاله في دين الله عز وجل، و لم يزل المستشرقون كلما سنحت لهم الفرصة لذلك ليشوهوا نور الإسلام الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ولا شك أنهم يريدون دائما ضرب أصول الدين، ولا سيما إذا كان هو المصدر الأول للتشريع مثل القرآن الكريم، ولكن الله توعد بحفظه، وأنجز وعده للمؤمنين، بأن حفظه إلى يوم الناس هذا، وقد كتب الغربيون[1] حول القرآن، والحديث، والعقيدة، والشريعة، كل هذا من أجل زعزعت إيمان المؤمنين، وإدخال الشك والريبة في قلوبهم.

ومن بين هذه الشبه التي ينسبوها إلى القرآن الكريم؛ شبهة تعارض هذا الأخير مع بعض مصاحف الصحابة، التي رُتب بعضها على الترتيب النزولي، وللأسف الشديد أننا نجد بعضا ممن يدعون الاجتهاد، ويُحسبون على أنهم من المفكرين الإسلاميين، ينساق وينجر خلف هته الفكرة، إما عن حسن نيّة، أو لتأثره بالدراسات الشرقية عموما وبالاتجاهات، والمناهج الحديثة.

وعندما كنت أتصفح كتاب: "حصاد قلم" للدكتور محمد عبد الله دراز، وقعت عيناي على مبحث سمّاه صاحبه: "النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله" فأعجبني ذلك النقد، والذي أفاض فيه صاحبه، وغاص إلى أعماق هذه الدعوى،

[1]- من هؤلآء المستشرقون: نولدكه، صاحب كتاب: "المصاحف"، وبلاشير الفرنسي صاحب كتاب: "القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره، وهوير الألماني، وآرثر جفري مؤلف كتاب: "المصاحف العثمانية" وغيرهم.

حتى أصولها مزلزلا كل أساس بُنيت عليه بطريقة علمية فنية، فتتبعته بدوري، وحاولت أن ألخص ما جاء فيه، وأضفت إليه ما أراه يخدم هذا الموضوع، عسى أن أكون قد ألممت، وسهلت الوصول إلى هذا المعنى في وريقات قليلة.

وفي الحقيقة أن هذا الكلام الذي لخصته؛ هو رد على رسالة من الأزهر الشريف، كتبها يوسف راشد (بوزارة العدل المصرية) في مجلة الأزهر لشهر رمضان سنة (1370هـ/1950م)، مجلد 22، وهاك أخي القارئ جزءا من نص هذه الدعوى، ثم بعد ذلك التعقيب عليها.

«...إن ترتيب القرآن في وضعه الحالي يبلبل الأفكار، ويضيع الفائدة من تتريل القرآن، لأنه يخالف منهج التدرج التشريعي، الذي روعي في التزول، ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة، لأن القارئ إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية، اصطدم صدمة عنيفة، وانتقل بدون تمهيد، إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه، وصار كذلك ينتقل من درس في الحروف الأبجدية إلى درس في البلاغة..»[1].

إن القارئ عندما يرى مثل هذا الكلام ينبهر ويتعجب منه ولا يشك طرفة عين بأن قائله لا يكون إلا أحد المستشرقين الذين يُعرفون بمثل هذه الخرجات الغريبة، وهذه الترهات التي أقل ما يقال فيها أنها مجرد تخمينات لا أساس لها من الناحية العلمية، ولا

[1]- مقال النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله، عبد الله دراز، مجلة الأزهر، رئيس التحرير: محمد فريد وجدي بكّ، تحت إدارة ديوان الإدارة للأزهر، والمعاهد الدينية، بالقاهرة، مطبعة الأزهر 1950م، المجلد22، ص 784.

من الناحية الواقعية، هذا بالنسبة للقارئ البسيط فضلا عن العالم المدقق المحقق، فربما يرى فيها شيئا آخر؛ الله أعلم كيف يكون موقفه، وحكمه على مثل هذه الأفكار، وأصحابها.

يقول عبد الله دراز: «أول ما نلاحظه أن هذه المقدمات لو صحت[1]، كان يجب أن تؤدي إلى نتيجة غير التي يدعو إليها الكاتب، لأنه كان يلزم بمقتضى استدلاله ألَّا يُعاد ترتيب السور فحسب؛ بل أن تنثر نجوم القرآن كلها، سواء كانت سورا، أو مجموعة آيات، وترتب حسب نزولها المكي قبل المدني، والمتقدم عن المتأخر، حتى تُراعى في ذلك المراحل التاريخية لتزوله: فهل تصور هذا الكاتب كيف يكون جمال المصحف الشريف حينئذ؟ رغم أنه لم يتجرأ في دعواه إلى ذلك (تغيير الآيات) لأن الحجة مقامة، والبرهان والدليل موجود، واعترافه أيضا بذلك على أن ترتيب الآيات أمر توقيفي كما رأينا سابقا.

واعترافه هذا قد أوقعه في مأزقين:

الأول: قد علم أن ترتيب الآيات لم يراعى فيه التسلسل التاريخي للأحداث؛ بل روعيَ فيه أمرا آخر؛ لأن جبريل عليه السلام كان يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، بوضع آيات مكيات بجوار آيات مدنيات، والمسألة أهون في ترتيب السور الغير متجانسة منه في ترتيب آيات متجاورات ليست من نفس اللون.

والآخر: كما لو أنه دقق في مسألة ترتيب السور لخَرج برأي، ربما يكون أقرب للأول، وهو القول بتوقيفية معظم سور القرآن، إلا بعض المواضع التي لم يصل الدليل على ترتيبها،كما هو الشأن في وصل سورة براءة بالأنفال بدون بسملة، وهو من فعل

[1]- لا يقصد نسبتها، بل معناها.

رسول الله وفعل الصحابة من بعده»[1]، حيث أن الرجل يمنع من تغيير نظام الآيات في السور لأنه أمر توقيفي، وليس هو اجتهاد من الصحابة، ولهذا يجب احترام قدسية هذا الترتيب الذي ليس لأحد دخل في ترتيبه.

وأما قوله بأن الانتقال من السورة المكية إلى السورة المدنية يصدم القارئ صدمة عنيفة، ويدخله طفرة في جو غريب منقطع عن السياق [وكأني أتصوره ما إن يحمل كتاب الله ليقرأ فيه؛ حتى يُصدم تلك الصدمة العنيفة، ويخرج من جو إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه، فلا يمكنه بعد ذلك مواصلة القراءة في المصحف، فيتوقف، فهو على هذا النحو لا يقرأ كتاب الله أبدا، ولا يتدبر فيه، فضلا عن شعوره بذلك الذوق الرفيع، وتلك البلاغة العربية فيه، وتلك الآداب وأثرها في نفس القارئ، وسمو روحه ووجدانه، وبذلك قد فاته الشيء الكثير]، فيقول الدكتور دراز ما ملخصه: «...إن كلمة "الصدمة العنيفة" و"الجو الغريب" ألفاظ فضفاضة يستعملها الكتاب ليؤثروا بها في نفوس القراء، هذا إن كانت معانيها صحيحة، فكيف لو كانت غير ذلك؟ ثم رأى هذا الكاتب أن هذا الكلام غير مقنع فضرب مثلا لذلك التنافر، وتلك الصدمة، وذلك الجو الغريب بوضع سورة محمد بعد سورة حم الأحقاف، فإن القارئ يشعر بذلك... ولم يضع يدنا على موضع المفارقة وبين وجه الانقطاع، والحقيقة أن هناك مناسبات رائعة بين تقابل هذه السورتين وخاصة بين صدر سورة محمد ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله...**﴾[2]، وصدر سورة الأحقاف حتى قوله ﴿**ومن أضل ممن يدعوا من**

[1]- عبد الله دراز، حصاد قلم، ص 47.

[2]- سورة محمد: آية 01.

دون الله...﴾[1]، من جهة، ومن جهة بين عجز سورة الأحقاف ﴿**بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾**[2]، وعجز سورة محمد ﴿.. **يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**[3]، ثم لينظر هذا التقابل بين البدايتين وهذا التوازن بين النهايتين، وهذا قمة في التناسق والانسجام، فإن ظنّ حضرته أن مجرد ذكر القتال في سورة محمد، وعدم ذكره في سورة الأحقاف يباعد بين السورتين، قلنا له: ألم تر كيف وضُعت في آخر سورة الأحقاف قنطرة مهّدت للعبور منها إلى هذا المعنى الجيد؟، فلقد كان الإنذار في إهلاك الفاسقين في آخر السورة توطئة للأمر بنوع من أنواع هذا الهلاك، في السورة التي تليها، وهو القتال في سبيل الله»[4].

ثم انتقل إلى تفنيد قوله: أن الوضع الحالي للسور مخل بحكمة تدرج التشريع، فقد ضرب الدكتور دراز مثلا ماديا لذلك، بجلب سلعا لبناء بيتا لا يبالي بأن يشتري أجزاء العرش والسقف قبل الأسس والجدران، متتبعا في ذلك فرصة توفر الثمن وتوفر تلك السلعة في السوق، ثم بنا بيته، أكان ذلك مخلا بهندسة ذلك البيت، وبالقياسات التي وضعها المهندس؟؟ كذلك كان القرآن الكريم يترل بحسب الوقائع، ثم رتب حسب ذلك التصميم الذي أراده الله تعالى له فكان منسجما متكاملا آخذا بعين الاعتبار

---

[1]- سورة الأحقاف، آية 05

[2]- سورة الأحقاف، آية 35.

[3]- سورة محمد، آية 38.

[4]- عبد الله دراز، حصاد قلم، ص 48.

التدرج في التعليم والفهم، والانتقال من جو إلى جو تدريجيان إما تصاعديا أو تنازليا، حسبما تقتضيه الضرورة...[1] .

وبهذا يظهر بطلان هذه الدعوى الغير مؤسسة على أصول علمية، ولا على اجتهاد فيه نظر؛ بل إن الانسياق خلف مثل هذه الدعاوى خاصة إن لم تكن مبنية على أسس علمية قد توقعنا في شراك الجهل، والشك في مصادرنا الدينية، لا سيما ونحن نتعامل مع أقدس كتاب، وأفصح كلام وأبلغه، فضلا على أنه كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، بل قد يؤدي ذلك إلى الرمي بوجه من أوجه إعجازه والمتمثل في أسرار ذلك الترتيب الذي رُتب عليه، ولا ندري بعد ذلك أين يوصلنا ذلك الطريق، وما ينتج عن تتبع هذه الخطوات، فحسبنا أن نتوقف فيما توقف فيه الأولون، وهم أعلم بأمر هذا الكتاب من ناحية الفهم والشكل، خاصة إذا كان الأمر توقيفيا فيه نص، فلا اجتهاد بعد ذلك، إلا فيما ترك فيه الأمر مفتوحا لذلك، فلقد جاء في الحديث "أنه من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد"، ثم إننا لسنا مجبرين ولا مضطرين إلى القيام بهذه الخطوة لأن القرآن الكريم لم يضق ذرعا بشرح أو تفسير أي موضوع من مواضيع الحياة، ولم يفرط في شيء نحن بحاجة إليه، سواء في المنهج أو الموضوع، فهو المعين الذي لا ينضب والنبع الصافي الذي لا يبخل بما فيه، قال تعالى: ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾ فإلى أن ينقطع عطاؤه نبحث عن طريق آخر نتعامل به فيه.

[1] – عبد الله دراز: حصاد قلم، تحقيق، أحمد مصطفى فضيلة، تقديم عبد الستار فتح الله سعيد، دار القلم، 2000م، القاهرة: ص 45 وما بعدها.